﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ١٥﴾ [إبراهيم: 15]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

يبدأ النّصر باستفتاح الرّسول والّذين آمنوا

بعد أن جاء وعد الله للمؤمنين بالنّصر والتّمكين، وما أحدثه الصّبر والتّوكّل على الله من الاستعداد النّفسيّ للنّصر والتّمكين، جاءت الآية لتُظهر أوّل بوادر النّصر باستفتاح الرّسل، والّذين آمنوا معهم؛ إذ طلبوا النّصر والفتح من الله تعالى فهم المؤمنون بقدرته سبحانه المُتوكّلون عليه وحده، فجاءهم النّصر وخاب الجبّارون المتكبّرون.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾: جذرُ الكلمة هو (فتح)؛ والفَتْح: النُّصْرةُ، قال تعالى: ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ﴾ [الأنفال: 19]. واستَفْتَحْتُ اللّهَ على فُلانٍ؛ أيْ: سَأَلْتُه النَّصْرَ عليه. ونحو ذلك، والفَتّاح: الحاكم، وقوله تعالى: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ﴾ [القصص: 76]؛ يعني: الكُنوز وصنوُف أمواله، فأمّا المَفاتيح فجَمْع المِفتاح الّذي يُفتَحُ به المِغلاقُ، وفَواتِح القُرآن: أوائل السّوَر[1].

ويحتمل الاستفتاح الوارد في الآية معنيَيْن: **أحدهما**: طلب الفتح بالنُّصرة، أيْ: (واستنصروا اللّهَ على أعدائهم)، **والثّاني**: الحكم والقضاء، أيْ: (واستحكموا الله، وسألوه القضاء بينهم)، وهو مأخوذ من الفتاحة؛ وهي الحُكومة كقوله: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: 89][2].

2) ﴿وَخَابَ﴾: جذر الكلمة هو (خيب)؛ الخَيْبَة: فوت الطَّلب، وهو المُراد في قوله تعالى: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾، ومنها، قوله تعالى:

(1) الخليل، العين: (فتح).
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/78.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾ [طه: 61]، ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشّمس: 10][1]، خيب: الخَيْبَةُ: حرمان الجدّ[2]. والآية ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾؛ أيْ: خسر وكُسِرت شوكتُه، وذهبتْ ريحهُ، وانتصرَ الحقّ على الباطل.

3) ﴿جَبَّارٍ﴾: جَذر الكلمة هو (جبر)؛ أصل الجَبرِ إصلاح الشَّيء بضربٍ من القهرِ، يُقال: جبرته فانجبر، والجبّار في صفة الإنسان، يُقال لمَن يَجبر نقيصته بادِّعاء منزلةٍ من التَّعالي لا يستحقّها، وهذا لا يُقال إلّا على طريق الذَّمِّ؛ وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: 35]؛ أي: متعالٍ عن قَبول الحقّ والإيمان له[3]، ورجل جبّار: مُتكبِّر[4]. والمعنى المُراد هُنا في قوله: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾؛ أيْ: هُزم الكفّار المُعاندون الّذين آذوا النّبيّ والّذين آمنوا، وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم.

4) ﴿عَنِيدٍ﴾: جذر الكلمة هو (عند)؛ عَنَدَ الرّجل يَعْنُدُ عَنْدًا وعُنودًا فهو عاند وعنيد، إذا طغى وعتا، وجاوز قدره، ومنه: المعاندة، وهو أن يعرف الرّجلُ الشَّيءَ ويأبى أن يقبلَه، أو يُقِرَّ به[5]، فلانٌ عنيدٌ ومُعاند: يعرف الحقّ فيأباه ويكون منه في شقّ[6]، والعَنِيدُ: المُعجَبُ بما عنده، والمُعانِدُ: المُباهي بما عنده. قال: ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾ [ق: 24]، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾﴾ [المدّثر: 16]، والعَنودُ قيل مِثلُه، قال: لكن بينهما فرقًا؛ لأنَّ العَنِيدَ الّذي يُعانِدُ ويخالف، والعَنودُ الّذي يَعْنُدُ عن القصْد، وعَنَدَ عن الطريق: عَدَل عنه، وعانَدَ: فارَقَ[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

طلب الرّسل والمؤمنون معهم الفتح من اللّه، وإنزال العذاب

الاستفتاحُ طلبُ الفتح من الله تعالى، ولا يكون ذلك إلّا للمؤمنين

(1) الرّاغب، المفردات: (خيب).
(2) الخليل، العين: (خيب).
(3) الرّاغب، المفردات: (جبر).
(4) ابن سِيده، المُحكم: (جبر).
(5) الخليل، العين: (عند).
(6) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (عند).
(7) الرّاغب، المفردات: (عند).

عليهم بعد يئسهم من إيمانهم، فجاءهم النّصر، وأصاب أعداءهم ما أصابهم من خيبة العتوّ والتّكبّر على الحقّ وأهله.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو ودلالتها في ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾:

(الاستفتاح): طلب الحُكم، وإنفاذه بالنّصر والتّمكين

في قوله سبحانه: ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾ إمّا أن تكون الواو للاستئناف، وإمّا أن تكون للعطف، ويترتّب على ذلك توجيه الضّمير في ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾، فعن مجاهد قال: ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾؛ يعني: الرّسل كلّهم[1]. ويجوز أن يَكون قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾ مُنقطعًا عن قصّة الرّسل ﷺ فتكون نازلة في أهل مكة؛ طلبوا الفتح الّذي هو المطرُ في سِنِيهم الّتي أُرسلت عليهم، بدعوة رسول الله ﷺ فخيّب سبحانه رجاءهم، ولم يَسْقِهم، ووعدَهم أن يسقيَهم في جهنّم - بدل سُقياهم - صديدَ أهل النّار، و(الواو) على هذا للاستئناف[2]. أو هي للعطف؛ إمّا على قوله تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢﴾ [إبراهيم: 2]، أو على خبر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ۝٣﴾ [إبراهيم: 3] لقربه لفظًا ومعنًى، والوجه الأوّلُ أوجَهُ؛ وذلك لبُعد العهد، وعدم قرينة تخصيص الاستفتاح بالاستمطار؛ ولأنّ الكلام على ذلك التّقدير يتناول أهل مكّة تناولًا أوليًّا، فإنّ المقصود من ضرب القصّة أن يعتبروا[3].

والضّمير في قوله: ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾ للكفّار والعطف حينئذٍ على ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أيْ: قالوا ذلك واستفتحوا على نحو ما قالت قريش: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص: 16]، وكأنّهم لمّا قوي تكذيبهم، وأذاهم ولم يعاجَلوا بالعقوبة؛ ظنّوا أنّ ما قيل لهم باطل؛ فاستفتحوا على

(1) مجاهد، تفسير مجاهد، ص: 410.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/512.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/190.

سبيل التَّهَكُّم والاستهزاء كقول قوم نوح عليه السلام: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [هود: 32]، وقوم شعيب عليه السلام: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الشّعراء: 187] إلى غير ذلك. ويمكن أن يكون الاستفتاح للرّسل وللمؤمنين فيكون العطف على ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على هذا أيضًا؛ بل ظاهر كلام بعضِهم أنّ العطف عليه على القراءة المشهورة مُطلق[1]. فيكون الاستفتاح للرُّسُل وللمؤمنين طلبًا للنُّصرة على الكافرين.

دلالة القراءة بالأمر في ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ﴾:

الأمر بالاستفتاح وطلب النّصر من الله وتعذيب الكفَرة

قرئ شاذًّا (واستَفتِحوا) بلفظ الأمر[2]، على معنى الأمر للرّسل، قرأها ابن عبّاس ومجاهد وابن محيصن[3]. وعطفه على قوله: ﴿لَنُهْلِكَنَّ﴾؛ أيْ: أوحى إليهم ربُّهم، وقال لهم: لَنُهلكنّ، وقال لهم: استفتحوا[4].

نكتة زيادة المبنى في ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ﴾:

دلالة حروف الزّيادة على عظيم شأن طلب الفتح من الله سبحانه

تدلّ زيادة المبنى على زيادة المعنى، فكلّما كانت الحروف المُضافة إلى مادّة من الموادّ أكثر، كلّما كان المعنى ذا دلالة أكبر، فدلّت زيادة الألف والسّين والتّاء على الفعل (فتح) على الصّعوبة والمُعاناة الّتي كانت قد واجهت المُستفتِحين، وما آلت إليه أمورُهم، وما واجههم من القتل والتّهجير، وهم يستفتحون من الله النّصر والتّمكين.

غرض الحذف في ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ﴾:

عدم ذِكْر نُصرة المؤمنين باعتباره أمرًا مُسلَّمًا به

في الكلام إيجاز بحذف الفاء الفصيحة والمعطوف عليه؛ أي: استفتحوا ففُتح لهم، وظفروا بما سألوا، وأفلحوا، وخاب كلُّ جبّار عنيد، وهم قومهم المعاندون[5]. أو استفتح الكفّار على الرُّسل وخابوا

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/190.
(2) الدّمياطيّ، إتحاف فضلاء البشر: 342.
(3) ابن عطيّة، المُحرّرُ الوجيز: 3/330.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/78.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/190.

ولم يفلحوا؛ وإنَّما قيل: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ذمًّا لهم وتسجيلًا عليهم بالتَّجبّر والعناد، أو استفتحوا جميعًا فنُصر الرُّسل، وأنجز لهم الوعد، وخاب أعداؤهم. والجبّار: المُتكبِّر على طاعة الله تعالى وعبادته، والعنيد: المُعاند للحقّ[1]، والحذف يُتيح تقديراتٍ للمحذوف يُرشد إليها السّياق، والذِّكر يمنع ذلك، فوراء الحذف تغزيرٌ للمعاني كما مضى بيانه.

دلالة الواو في: ﴿وَخَابَ﴾:

الخَيْبةُ لاحقةٌ بالكافرين جَزاء تجبُّرهم وعنادهم

في قوله: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، ﴿وَخَابَ﴾؛ (الواو) حرف عطف، (خاب) معطوف على محذوف، وتقديره: استفتَحوا، فنُصِروا، وخاب، ويجوز أن يكون عطفًا على ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ﴾ على أنَّ الضَّمير فيه للكافرين[2]؛ بمعنى أن يكون الكافرون هم الّذين استفتحوا ذلك باعتبار أنَّهم كانوا يزعمون أنَّهم على الحقِّ؛ أي: استفتح الكفّار على الرّسل ﷺ، وخابوا، ولم يفلحوا.

سرُّ التّعبير بالفاعل شاملًا مُضافًا ﴿كُلُّ جَبَّارٍ﴾:

الجَبَروت والعناد صفتان مُتلازمتان عند الطّغاة

آثر البيان القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ﴾ ألّا يكون التّعبير على نحو: (وخابوا)؛ وإنّما جاء بالفاعل شاملًا كلَّ موصوف بالصّفتيْن المُضافتيْن تضمينًا لسبب الخَيبة، فقد أبرز صفتيْن لهؤلاء المُستحقّين للإهلاك في الدّنيا ولعذابٍ عظيم في الآخرة، فوصفهم بالجَبَروت والعناد، وسوف يُحاسب كلّ واحدٍ منهم على ما في نفسه من الجَبَروت والعناد، فكلٌّ يأخذ ما يستحقّ على قدْرِ تعاظم هاتيْن الصّفتيْن في قلبه ونفسه وأفعاله وأقواله؛ وهما صفتان متلازمتان عند رؤساء الكُفر من الطّغاة، وهو دالٌّ أيضًا على أنّ هاتيْن الصّفتيْن من صفات الكافرين المُستفتح عليهم فيما سبق،

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/307 - 308.
(2) ابن عادل، تفسير اللّباب: 1/3104.

ولو عبّر بالضّمير بدل ذلك لما ظهرت هاتيك المعاني، فكأنّها وصفٌ لجرائمهم والدّوافع إليها من الجبروت والعناد.

نكتة الجمع بين ﴿جَبَّارٍ﴾ و﴿عَنِيدٍ﴾:

تجتمع الصّفتان لأنّهما من الطّبائع النّفسيّة المتقاربة

المُراد بالجبّار في قوله تعالى: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ المتكبّر على طاعة الله تعالى وعبادته، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ [مريم: 14]. أمّا العنيد فقد اختلف أهل اللّغة في اشتقاقه، قال النّضْر بن شُميل: العُنود: الخلاف والتّباعدُ والتّركُ، وقال غيره: أصلُه من العند وهو النّاحية، وعاند فلانٌ فلانًا إذا جانبه وكان منه على ناحية. وكونه جبّارًا مُتكبّرًا إشارة إلى الطّبائع النّفسيّة، وكونه عنيدًا إشارة إلى الأثر الصّادر عن تلك الطّبائع وذلك الخُلُق، وهو كونه مُجانبًا للحقّ مُنحرفًا عن الاستقامة، ولا شكّ أنّ الإنسان الّذي يكون خُلُقه هو التّجبُّر والتّكبُّر، وفعله هو العنود، وهو الانحراف عن الحقّ والصِّدق، كان خائبًا عن كلّ الخيرات خاسرًا عن جميع أقسام السّعادات[1]، وهاتان الصّفتان متلازمتان أبدًا لا توجد إحداهما دون الأخرى.

بلاغةُ الجناس النّاقص في قوله: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ مع قوله: ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾:

بيان الحالة القلبيّة بين المؤمن والكافر

ثمّة جناس ناقص بين (خاف) و(خاب)، فالشّطر الأوّل من الجناس لِمَن خاف وعيدَ الله تعالى، بينما تكون الخَيبة للجبّار العنيد، فأفاد الجناس أنّ الجامع بين الاثنَيْن حالةٌ قلبيّة؛ لكنّها معكوسة بين الفريقَيْن، فذكَر الفريقَيْن على سبيل المقابلة، ليكشف عن حالتيِ النّفس المتناقضتَيْن فيهما.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/78 - 79.

نكتة تنكير ﴿جَبَّارٍ﴾ و﴿عَنِيدٍ﴾:

تحقير وتهوين صفتي التّجبّر والعناد

أفاد تنكير صفتي ﴿جَبَّارٍ﴾ و﴿عَنِيدٍ﴾ التَّهوين والتّحقير، فمهما كان ذلك الجبّار مُتغطرسًا عنيدًا في الدّنيا؛ فإنّه في الآخرة هيّنٌ حقير، وتصيبه الخَيبة والخِذلان لا محالة.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 24 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-21-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 24 : المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-21-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1718375 بتاريخ 2024/02/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»